مقدّمة

تتّسم دراسة مفهوم جماليّ ما في أساطير الشرق القديم وملاحمه بجاذبيّة خاصّة، لأنّها في الأساس؛ دراسة مجموعة القيم الاجتماعيّة الناتجة عن علاقة الإنسان الاجتماعيّ بواقعه، مدفوعاً برغبة دفينة غايتها فهم الحياة وإدراك كنهها، ولأنّ الفنّ نتاج جماليّ أصلاً، فإنّ حرص إنسان بلاد الرافدين على إيصال هذا النتاج الفنيّ للأجيال التي تليه، هو في الأصل نابع من موقف جماليّ وأخلاقيّ في آن.

لذا كان من الممتع والمفيد البحث في تجلّيات واحد من أهمّ المفاهيم الجماليّة، وهو البطوليّ المعبّر عن تفكير الإنسان الذي أنتج هذا الأدب؛ ذلك أنّ التفكير كان وما يزال أكثر قدرة على عكس الواقع بعمق وصدق، من التعبير عن طريق التأمّل المباشر. فالإنسان الذي شخّص البطوليّ، وحمّله أخلاقه ورغباته، كان يريد أن يعيش الحياة بوصفها وحدة متكاملة، منسجمة مع ذاتها، لا بوصفها مجموعة من الجزئيّات المتفرّقة، لذلك جعل البطوليّ القوّة الفاعلة، والمؤثّرة في إعادة النظام، وإسقاط الفوضى. وكان سعي الشخصيّة البطوليّة لتحقيق هذه الرغبات هو سعي الإنسان ذاته في نضاله اليوميّ مع جزئيّات الحياة اليوميّة.

ولمّا كان دور الفنان هو التعبير عن الجوهر، عبر تشكيل النموذج الفنيّ الجماليّ، المطلوب تمثّله، وإدراكه، ومعرفته، واتباعه، كانت محاولة اكتشاف قيمة هذا النموذج الجماليّ، لا تتمّ إلا عبر تتبّع تجلّيات وجوده في أساطير الشرق القديم وملاحمه، والتي ظلّت أكثر الدراسات تدور إمّا في فلك ترجمة نصوصها والتعليق عليها، أو في محاولة استخلاص بعض المعتقدات الدينيّة التي جسّدها مؤلفو النصوص الرافديّة. لذا بدا لنا أنّ دراسة مفهوم البطوليّ في أساطير الشرق القديم وملاحمه، يمكن أن تجلو بعض قيم الوعي الجماليّ، التي أدركها مؤلفو النصوص وعرفوها، وردّد الناس كلماتها في احتفالاتهم وطقوسهم الدينيّة.

ولعلّ من أهم المشكلات التي يمكن أن تعترض بحثاً كهذا، هي إهمال الدراسات التي تناولت تلك الأساطير، والملاحم للقيم الجماليّة، ومفاهيمها، إذ من النادر أن يعثر الباحث على دراسة تناولت مفهوم البطوليّ، مع أنّ بعض الدارسين أشاروا عرضاً إلى أهميّة دراسة هذا المفهوم.

وقد اعتبر الاتجاه البطوليّ في تفسير التاريخ من أقدم التفسيرات التي عرفها الإنسان؛ وهو يعني أنّ أعمال الرجال العظام هي التي تصنع التاريخ في هذا العالم، وهؤلاء الرجال هم أسمى من عامّة البشر: (الملك هو العامل الوحيد المؤثّر في صناعة التاريخ)، وفي هذا الاتجاه تحدّث كثير من المؤرّخين والفلاسفة اليونان، ابتداءً من "هيرودت أبو التاريخ **489-425**ق.م"[1] ومروراً بـ "ثوكيدس **465-401**ق.م" الذي تبنّى نظريّة الرجل العظيم، وبأنّ العظماء من الرجال هم الذين يصنعون التاريخ. فالتاريخ إذاً هو تاريخ الأبطال العظام، بعد ذلك جاء المؤرخ اليونانيّ "بلوتارك **125-46**ق.م"، الذي أشار إلى أنّ الملك (البطل) هو العامل الوحيد المؤثّر في سير الأحداث وصناعتها.

وظلّت نظريّة تفسير التاريخ التي تقول: إنّ التاريخ هو تاريخ الرجال العظام، سائدة.. ففي العصور الوسطى كانت معظم النصوص تستمدّ موضوعاتها عن الشخصيّة البطوليّة، من شخصيّة السيّد المسيح، بما تجسّد من تخليص للبشرية، وحمل لآلامها، وآمالها، وما تحمل من قيم تضحية البطل بنفسه من أجل تخليص أتباعه.

وقد صوّر الكتّاب الفرسان (الأبطال) وهم يتمتّعون بالشهامة، ويدافعون عن الكنيسة، ويضحّون من أجلها، محبّين لأوطانهم، يعطون بسخاء، أقوياء البنية، مناصرين للنظام، ولا يهابون العدوّ ولا يستسلمون له.. وفي هذا السياق ألّفت كثير من الملاحم التي تتّحدث عن الأبطال الملوك، مثل: "ريتشارد قلب الأسد"، و "ألفونسو العاشر" ملك "قشتالة"، وأسطورة "الملك آرثر" للمؤرخ الويلزي "جيفري **1150**م".

وقد عكست تلك القصص، وتلك الطريقة في تصوير الأحداث البطوليّة، عقليّة النظام الإقطاعيّ، ونشوء طبقة الفرسان التي سادت في أوربا.

ثم جاء "توماس كارليل **1795-1885**م" في العصر الحديث، وهو فيلسوف ومؤرّخ اسكتلندي، ألف كتاباً بعنوان "الأبطال وعبادة البطل"، وهو من أشهر المدافعين عن الاتجاه البطوليّ في تفسير التاريخ، فالتاريخ هو ما أَحْدَثَ الإنسان في هذا العالم، إنّه تاريخ من ظهرَ في هذه الدنيا من عظماء شكّلوا القدوة والأسوة،

١- ينظر: هيرودت يتحدّث عن مصر، ص: 12. تر: محمد صقر خفاجة، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2007.

وهم المبدعون لكلّ ما وفّق إليه الناس، وكلّ ما بلغه العالم، وكلّ ما نراه في هذا الوجود.

وعلى منوال "توماس كارليل"، نسج "هربرت سبنسر 1820-1903م"، إلى أن جاء الفيلسوف الألماني "نيتشه 1844-1900م" الذي تحدّث عن نظريّة السوبرمان، حيث آمن بفلسفة القوّة، وتمجيد الزعيم المحبوب صاحب القدرات التي تفوق قدرات البشر الذي يلهم الناس.

لكلّ ما تقدّم رأينا العودة إلى دراسة النصوص البكر، محاولين إلقاء الضوء على هذه الظاهرة البطوليّة، وأساليب تجلّياتها في الأدب الرافديّ. وقد قسمنا بحثنا، إلى مدخل، وأربعة فصول، وخاتمة، وملحق بأسماء الأعلام والآلهة، وقائمتي المصادر والمراجع.

تناول المدخل: الحديث عن نظرية البطوليّ، (تحديد المفهوم، وتوضيح العلاقة بين البطوليّ والمفاهيم الجماليّة الأخرى كالجليل، والجميل، والتراجيديّ)، وعرض الخصائص البطوليّة العامّة لـ (الذكورة، والأنوثة، والألوهيّة)، ثمّ قدّم أهميّة البطوليّ في الشرق القديم.

واختصّ الفصل الأول: بدراسة تجلّيات البطوليّ في أساطير الخلق والتكوين، عبر عدد من الأساطير كأسطورة الخليقة وغيرها.. وتحدّث عن البطوليّ والصراع الكونيّ، والخصائص العامّة للبطوليّ (الجسدية، والمعنوية، والسلوكية)، وعالج مسألة العلاقة بين البطوليّ، وجماليّات المكان.

وتناول الفصل الثاني: البطوليّ في أساطير البعث والموت، عبر أسطورة عودة دمّوزي، وأسطورة نزول عشتار إلى العالم الأسفل.. وتضمّن محاولة لرصد الأبعاد الرمزيّة البطوليّة.

ودرس الفصل الثالث: البطوليّ في ملاحم الشرق القديم؛ ففرّق بداية بين الأسطورة والتاريخ، كما ركّز اهتمامه على شخصيّة "جلجامش"، وأبعادها الإنسانيّة والاجتماعيّة، راصداً أعماله البطوليّة الملحميّة، ثمّ أقام دراسة مقارنة بين الملاحم البابليّة، واليونانيّة، والسير الشعبيّة العربيّة.

وعمل الفصل الرابع: على الأدوات الأسلوبيّة المستخدمة في أساطير الشرق وملاحمه، حيث بيّن الطبيعة الشفويّة للنصّ الأسطوريّ أو الملحميّ، وتحدّث عن البنية السرديّة للنصوص، كما توقّف عند أسلوبيّ التكرار اللفظيّ والمقطعيّ فيها. إضافة إلى دراسة الصورة الفنيّة التي رسمت صورة البطوليّ مشهديّاً، وحسيّاً، ومجازيّاً..

وقد لخصت الخاتمة: أهمّ النتائج التي تمّ التوصّل إليها، وحدّدت موقع البحث ضمن الدراسات المشابهة له، مع أهمّ المقترحات المتعلّقة بدراسة الأسطورة، والملحمة في الشرق القديم.

وانطوى الملحق على تعاريف بأسماء الأعلام، والآلهة الواردة في متن صفحات البحث، ليكون القارئ الكريم على بيّنة كافية منها.

ولا يسعني إلا أن أشكر لكلّ من قدّم لي المساعدة على إنجاز هذا البحث، أفضالهم وجهودهم، فلولا مساعداتهم وجهودهم لما عرف البحث طريقه إلى النور. فلهم مني التقدير والعرفان.

والله العظيم أسأل أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، فهو الأعلم بما تخفي الصدور، عليه توكّلت، وهو حسبي، ونعم الوكيل.

obeikandl.com